أدب هذه الغزارة الإبداعية نصيحة أسداها إليه طبيبه، هرباً من فكرة الانتحار بعدما فقد زوجته ورفيقة دربه وابنته. الروائي السوري الذي أمضى جلّ حياته في بيروت، يحكي في جديده «ياسمين» (دار جداول) عن التناقض الأزلي بين شرق وغرب، بين ثقافتين مختلفتين من خلال سيرته الذاتية

ياسين رفاعية... الكتابة طوق نجاة من الجنون

عناية جابر

ليس الهوس بكتابة الروايات والقصص (13 رواية لغاية الآن، عدا القصص القصيرة والمجموعة الشعرية وروايتين لم تُنشرا بعد)، مجرد اكتظاظ فنّي وسيولة أدبية عند الروائي السوري ياسين رفاعية (مواليد دمشق 1934). بل إنّها الكتابة المتواصلة التي تُنقذه من الجنون والانتحار. أمر نصحهُ به طبيبه النفسي المُعالج، طالباً إليه عدم التوّقف عن الكتابة، بغية استعادة الاتزان إثر حياة طويلة شابها فقد موجع. فقد أحبّة تمثّل في موت ابنته الشابة لينا عن سبع وثلاثين سنة، وموت حبيبته وزوجته الشاعرة أمل الجراح قبل موت ابنته بسنة واحدة.

في جديده الروائي «ياسمين» (دار جداول)، يخوض رفاعية في التناقض الذي ما برح بين الغرب والشرق، بين ثقافتين مختلفتين جذرياً، عبر حكاية الكاتب الذاتية. تتطرّق الرواية إلى قصة حب جمعت بين ابنة الكاتب لينا، والشاب الإنكليزي جون، خلّفت صراعاً حاداً بين قيم الأب الأخلاقية الشرقية، وقيم الحرية الباهظة عند الشاب الإنكليزي الذي أصبح لاحقاً زوجاً لابنته وأباً لأولادها الثلاثة.

صراع رفاعية ضد النسيان ـ النسيان الذي هو ظلم مطلق وسلوان مطلق في الوقت نفسه ـ هو جوهر أصالة رواية رفاعية التي تقع في هذا المفهوم تماماً. نقرأ عن نضاله بكل قوته المتبقية، وعدم نسيانه أصغر تفصيل في عيشه اللندني الذي جمعه وعائلته، مفضياً الى ذلك التعارض الحادّ، بين مفاهيم الكاتب الشرقية الراسخة، وبين مفاهيم غربية مغايرة أودت الى يوميات مليئة بسوء التفاهم، والكره والعنف، ثم النبذ والاحتقار للكاتب. ظنّ الأخير لوهلة أن بإمكانه طمس مفاهيم حرية الآخرين لصالح موروثات في دينه وسلوكه ومعتقده.

لن نخوض في أسرار الرواية تفصيلياً، فالتفاصيل عند رفاعية تلعب دور الأفكار، أو هي الأفكار تتلطى خلف التفاصيل. وفي الأفكار التي ضمنّها رواية «ياسمين» عموماً، تفترق صورة حياة رفاعية مع العيش اللندني، مع الحياة نفسها التي تبدأ تحكمهُ بقوانينها وتُملي عليه قوة قادرة باسم القانون والحريات الشخصية الغربية، لتغيير صورة شخصيته التي يراه البلد الوحيد الذي عاش فيه حراً: «لم يدّق بابي يوماً أي شرطي سير! كنت أشعر بالأمان المطلق. يحبونني ويحترمونني وكل دور النشر تقبل كتبي. كما أنني مارست الصحافة هنا، وراسلت كل وسائل الإعلام المكتوبة وصنعت اسمي. لبنان حالياً بعد الحرب الأهلية التي عايشتها بكل فجائعها، انكسر أخلاقياً وانفرز طائفياً، وأصبح الآن على كف عفريت. لا رئيس ولا مؤسسات ولا دولة ولا جهات قادرة حتى على رفع النفايات من الشوارع. هذا سببه أن لبنان ولد ولادة قيصرية وانتزع انتزاعاً من خاصرة سوريا. بيروت هي النافذة التي انفتحت لي على الأفق، بعد بدايات خانقة في سوريا عملت فيها في كل المهن، من صبي فرّان في فرن أبي الى العمل مع صانع أحذية. حين جاءت لور غرّيب الى دمشق، أجرت معي حواراً وكنت قد بدأت الكتابة. وعندما عادت إلى بيروت، نشرت حواري ووضعت صورتي على غلاف ملحق «لو جور» وفي الخلفية فرن أبي، وقالت في العنوان: من هذه الجامعة تخرّج ياسين رفاعية. نتاجاتي كما قلت لاقت ترحيباً هنا وفي مصر، والنتاج الجيد يفرض نفسه، خصوصاً في سوق الرواية المفضلة عند الناشرين». ماذا عن الشعر؟ هل حاولت إليه؟ وهل أنت مع رفض طبع الدواوين الشعرية بحجة أنها لا تبيع كما يعلل أصحاب الدور؟ يجيب: «إطلاقاً، أنا مع الشعر، فهو بالأساس ديوان العرب. ولي في مجال الشعر كتاب طُبع مرتين تحت عنوان: «أنت الحبيبة، وأنا العاشق»، وعلى دور النشر أن تتكفل بإيجاد سبل مساعدة الشعراء على نشر نتاجاتهم». ومن يعجبك من الروائيين؟ يردّ: «أحببت الياس الديري الذي كتب روايات أربع في الستينيات، وهو من الروائيين الجيدين وأحبّ جداً روايته «تبقى وحيداً وتندم». كما اقرأ لالياس خوري، والسوري اللبناني حليم بركات خصوصاً روايته المذهلة «ستة أيام»، إلى جانب حسن داوود، وعبده وازن، وربيع جابر، وحنان الشيخ، والسورية غادة السّمان وأسماء أخرى ليست في الذاكرة الآن».

> لبنان انكسر أخلاقياً وانفرز طائفياً، وأصبح الآن على كف عفريت

ترضخ في النهاية للقدر الإنساني المتمثل في الموت... الموت الأكثر حقيقية من كل المفاهيم الغربية والشرقية.

رفاعية الذي أمضى جلّ عمره في لبنان، أي أكثر من أربعين سنة،

موعد

«الكمنجاتي» الفلسطيني يغنّي ألحان الحجارة

روان عز الدين

لا تفصل «جمعية الكمنجاتي» بين الحصار العسكري والحصار الثقافي الذي يفرضه العدو الإسرائيلي على الفلسطينيين. الطريق نفسه يمرّ بالاحتلالين، وعليه تقود «جمعية الكمنجاتي» برنامجها لتعليم الموسيقى للأطفال الفلسطينيين. من هنا انطلق رمزي أبو رضوان بتأسيس «جمعية الكمنجاتي» في فرنسا عام 2002. تؤمن الجمعية فسحة موسيقية للطفل الفلسطيني، من دون أن تتخلى عن قيمة الموسيقى نفسها ومستواها. يتمّ كل ذلك على هامش التأليف والعزف الذي تقوم به «الفرقة الوطنية للموسيقى العربية ـ الكمنجاتي». تحيي الفرقة الموروث العربي والأغاني التراثية الفلسطينية والقوالب الموسيقية الشرقية والعربية الكلاسيكية، وصولاً إلى الموسيقى المعاصرة مثل ألحان محمد عبد الوهاب، ورياض السنباطي، وفريد الأطرش.

وبرغم الجانب النفسي الإيجابي الذي تتركه الموسيقى على الأطفال، وخصوصاً داخل واقع المخيمات الحياتي الخانق، إلا أنّ الأمر ـ رغم أهميته ـ يتعدى ذلك فعلياً. بقدر كبير من الجدية في التعامل مع الأطفال، تعمل الجمعية على «خلق» موسيقيين فلسطينيين، ومتابعتهم بمناهج موسيقية مكثفة، تتشابه مع النظام المدرسي. هذا ما يؤكده العدد الذي بدأ يزداد في الضفة الغربية، ووصل حالياً إلى 600 طفل فلسطيني تتراوح أعمارهم بين 6 و18 عاماً. يرتاد هؤلاء مدارس «الكمنجاتي» داخل فلسطين، في رام الله وجنين ومخيمات وقرى الضفة ومدارس الـ«أونروا»، حيث بنت «الكمنجاتي» مراكز لتعليم كل الآلات. هذه البرامج انتقلت إلى لبنان عام 2008، وتحديداً إلى «بيت أطفال الصمود» في مخيمي برج البراجنة وشاتيلا. على مدى السنة الدراسية التي تستمر من أيلول (سبتمبر) حتى حزيران (يونيو)، يتلقى 45 تلميذاً حالياً تعلم العزف على الطبلة والعود والكمنجة والناي، إلى جانب حصص في التذوّق الموسيقي، فيما سيُضاف التشيلو والقانون ابتداء من أيلول (سبتمبر) المقبل. هذه السنة للعام الثاني على التوالي، انطلق المخيم الصيفي لطلاب «الكمنجاتي» في لبنان في منطقة الشوف. في الإقامة التي تستمر لستة أيام، يخضع طلاب المخيمات لمجموعة دروس نظرية وتطبيقية مكثفة على أيدي موسيقيين فلسطينيين (طلاب سابقون في «الكمنجاتي»). وعند الثامنة من مساء الغد، ستتوّج بحفلة «فلسطين تغني ألحان الحجارة» الموسيقية في الـ«أسمبلي هول» في «الجامعة الأميركية في بيروت». الأمسية البيروتية التي يعود ريعها لـ«جمعية الكمنجاتي»، سيشارك فيها 16 موسيقياً فلسطينياً (بزق وعود وآلات إيقاعية وكونترباص، وكمنجة وناي وأكورديون) وسيقدمون مقطوعات فلسطينية فولكلورية، وموسيقى شرقية وعربية كلاسيكية، بمشاركة كورال يضم مجموعة من الأطفال المشاركين في المخيم الصيفي في الشوف.

> مقطوعات فولكلورية، وموسيقى شرقية وعربية

«فلسطين تغني ألحان الحجارة»: 20:00 مساء الغد ـ قاعة الـ«أسمبلي هول»، الجامعة الأميركية في بيروت. للاستعلام: 71/386148